أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الرويّة من محبته، وتمكنت من سويداء قلوبهم وشبحة حيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرّعهم، ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم، ولم يتولوا الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استطانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم، ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم، ولم تجفّ لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجوار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم، ولا تعدوا على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات، ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات، قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته، إلّا إلى موادّ من قلوبهم غير منقطعة من رجاءه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدّهم، ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم، ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم، ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرقهم سواء التقاطع، ولا تولّاهم على التحاسد، ولا تشعّبتهم مصارف الريب، ولا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقته زيغ ولا عدول، ولا ونى ولا فتور، وليس في أطباق السماء موضع إهاب إلّا وعليه ملك ساجد، أو ساع حافد، يزدادون على طول الطاعة بربهم علماً، وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظماً»[1].

(١) (من خطبة الأشباح ٩٠).

هنا - وبعد ما اكتملت الحجج البالغة عليهم من كافة النواحي الناحية منحى إثبات الحق وإزهاق الباطل، ولم يجدوا عنها مفلتا حيث قطعت عنهم كل أعذارهم الغادرة، ويئسوا من مناهضة حجته بحجة، فتورطوا في لجة غامرة محجوجين، عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم، فتركوا الحجة إلى التحدي:

﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿. . . فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ فوق الواجب، فصدعتنا دونما طائل واصب، وما نحن لك بمؤمنين مهما جادلتنا، و﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[1] ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾[2] ثم وآخر ما قالوه: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب ربك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في رسالتك.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ ليس إلّا ﴿يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ متى شاء وكما شاء، ولست أنا الذي آتيكم به من عند نفسي ولا من عند ربي، و«إن أنا إلا رسول» فالمشية هي مشيته دون سواه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله حين يشاء أن يأتيكم بعذاب من عنده أم لا يأتيكم به، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله في حجة رسالته، ولا ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ إياي عن مواصلة الدعوة بالحجج البينة، ثم:

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أنا مريد أن أنصحكم رسالياً دلالة إلى الحق المرام، ولكن ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ ربانياً حملاً على الحق فـ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١٦.
(٢) سورة القمر، الآية: ٩.

أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[١] ولا سيما ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ بما غويتم ختماً على قلوبكم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٢] فـ «الأمر إلى الله يهدي ويضل»[٣].

فقد يريد الله أن أنصح لكم دلالة إلى حق السبيل في شرعة الرسالة، ثم ويريد أن ينفع نصحي للذين يتحرون عن الحق حتى إذا وجدوه استقبلوه وقبلوه، وهو يريد إغواء الذين يحيدون عن الحق ويعارضونه، وعلى أية حال لست أنا بربكم حتى أنفعكم بنصحي إلّا دلالة أو أغويكم، وإنما ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو ربكم لا سواه في المسير والمصير وليس لي من الأمر شيء إلا أنّني نذير وبشير، والله على كل شيء قدير.

وهنا في ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ لمحة إلى أن استحقاق عذاب الاستئصال هو من خلفيات إغواء الله كما ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٤] - فإن أمر المترفين بما يأمر من طاعة ثقيلة لله، حملاً وجاه عباد الله، أمراً لهؤلاء الذين يعلم أنهم يفسقون، إنما يعني هذا الأمر - فيما يعني - إغواءهم بما غووا، وإزاغتهم بما زاغوا كما ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾[٥] و﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٦].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٤٩ في تفسير العياشي عن ابن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في الآية قال: . .
وفيه في قرب الإسناد للحميري بسند متصل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال في الآية: الأمر إلى الله يهدي من يشاء.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٦) سورة مريم، الآية: ٨٣.

إذاً فإغواء الله تعالى لا يعني إلّا تخييبه سبحانه لمستحقيه من رحمته، لكفرهم وذهابهم عن أمره: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾[١] أي خيبة من الرحمة، وارتكاساً في النقمة.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾:

أتراها آية معترضة لما افتري على محمد ﷺ؟ والدور كله في هذه الآيات لنوح عليه السلام! أم هي نكاية على قوم نوح مستعرضة لمحمد ﷺ؟.

نقول: إنها تعليقة على فرية المفترين منذ نوح إلى خاتم النبيين، هي تحليقة على هذه الفرية الجاهلة على الرسل أنهم مفترون على الله ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ على ربي رغم بينة الرسالة ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ وليس عليكم، فأنتم معذورون في إيمانكم بحجة الرسالة البينة أمام الله، ثم ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ إن افتريته، أمام الله، حيث يأخذني بجرمي هنا وفي الأخرى، فهنا: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾[٢] حفاظاً على شرعته من الفرية، فحين لا يأخذني هنا، كان ذلك برهاناً آخر لا مرد له على صدقي، حاضراً أمامكم حاذراً إياكم، إضافة إلى سائر البراهين - مهما غاب عنكم أن يأخذني الله في الأخرى -: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٣] - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤] - ﴿أَمۡ

(١) سورة مريم، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٤.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٨.

﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1].

ذلك، فحين تثبت الرسالة الربانية بحججها فلا عاذرة لأحد في تكذيبها أو تركها، إلّا أن يفتري على الله أنه جاهل بهذه الدعوى، أو تفسير، ج ١٤، ص: ٢٨٩

عاجز عن ردها، أو ظالم بحق العباد إغراء بجهلهم فيها، أم يوجد في هذا المدعي ما يبطل دعواه بذلك الوجدان، كأن يناقض في قوله، أو يقول ما ليست لتقبله الفطر والعقول، أم تكذبه الحواس الصادقة، وهذا هو المعني من: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾[2] إسقاطاً لربانية دعواه إلى سقاط الدعاوي الباطلة الهباء.

ذلك، ودعوى الفرية في القرآن - بكل حقوله - هي دعوى خاوية غاوية، لا فحسب في آياته، بل وفي تأليفه، فإن فيه دوراً هاماً في القمة البيانية لكتاب الدعوة العالمية.

فاستناد هذا القرآن إلى الله يتطلب أن يكون كلّه مادة وتركيباً من الله، فلو كانت المفردات من الله والتركيب لغير الله لكان القرآن مزدوج الكيان، إلهياً في مفردات وبشرياً في تنظيمات!.

ثم القسط الأوفر أو الموازي في إعجاز القرآن كامن وراء ذلك النظم البديع الرائع، تناسقاً نغمياً مرنا في موسيقاه، وتناسباً معنوياً في محتواه، وتحديه الصارخ لا يعني - فقط - مفرداته، بل هو متحدّ بنظمه البديع، فكما يتحدى بسورة قصيرة كالكوثر، كذلك يتحدى بعشر سور مثله مفتريات، أم وبه أجمع، وقد تشمل «سورة» آية مستقلة المعنى!.

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

ومن ثم لو كان ذلك النظم مسنوداً إلى غير الوحي الكافل لمفرداته، لكانت عندنا مئات من القرائين المختلفة في ترتيب آياتها وسورها حسب مختلف الأنظار في الموازين الأدبية والمعنوية.

ولقد تواترت الروايات أن النبي ﷺ كان يأمر كتّاب الوحي أن تجعل بعض الآيات في محالها التي بين أيدينا، لمكان اختلاف ترتيب التأليف عن ترتيب التنزيل.

وكما أن ترتيب الآيات كما هي الآن هو ترتيب قاصد بالوحي، كذلك ترتيب السورة كما هي الآن.

وقيلة إن هذا الترتيب هو من عثمان أمن أشبه إنها غيلة على صيانة القرآن، فأين عثمان وأمثاله من هذه القوة الخارقة التي تفوق قوة النبي ﷺ في قراره الحاسم الجاسم الذي لا حول عنه طول القرون الإسلامية؟!.

ذلك كله، إضافة إلى آيات تعني صيانة القرآن عن أي تدخل غير رباني في أيّ من شؤونه، ك آية القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ وهل يعني الجمع إلّا جمع مفرداته آيات وسوراً؟.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ تحمل حجتين اثنتين، حجة لنوح عليه السلام عليهم حيث أخبرهم بها ولم يؤمن منهم أحد حتى غرقوا أجمعين، وكان لهم وإن لواحد منهم أن يؤمنوا في ظاهر الحال تكذيباً لما أوحي إلى نوح عليه السلام، وحجة ثانية هي لغرقهم أجمعين حتى لا يقول قائل: علّهم كانوا يؤمنون فلماذا غرقوا؟.

ذلك، ولكن الأنسال الحاصلة بين هذا الوحي وغرقهم وهو طوال سنين، ما هو ذنبهم أولاء وهم قصّر أو صغار، أم وكبار منهم عقلاء علهم يؤمنون؟.

هنا ﴿لَن﴾ تحلق سلبية الإيمان على أنسالهم البالغين، وأن لم يكن هناك صغار وقصّر حين الغرق، أم وقطع الله أنسالهم فلم ينسلوا في هذا البين[١]، أم أمات صغارهم والقصّر منهم قبل الطوفان، أم لو شملهم الطوفان فليس هو عذاباً للقاصرين صغاراً ومجانين.

أجل، ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا مبرر لبقاءهم، ثم ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ إذ لا مكان ولا دور للابت آس بفعلتهم الملعونة حين يجزون بما كانوا يفعلون، وأنه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فالداعي الراجي إجابته لوقت ما يبتئس بما يفعله المدعوون من التكذيب والعناد، وأما إذا عرف مسيرهم ومصيرهم فلا دور لابتئاسه بما كانوا يفعلون.

أجل ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: لا تحسّ بالبؤس والقلق، ولا تهتمّ بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضارين من شيء حتى يغرقوا، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم ولا رجاء لهداهم.

ثم وهذا الوحي كان بعدما دعى نوح على قومه أم قبله بسناد: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[٢] [٣].

---

(١) في عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده إلى عبد السلام بن صالح الهروي عن الرضا عليه السلام قال قلت له: يا بن رسول الله لأي علة أغرق الله تعالى الدنيا كلها في زمن نوح وفيهم الأطفال وفيهم من لا ذنب له؟ فقال: ما كان فيهم الأطفال لأن الله تعالى أعقم أصلاب قوم نوح وأرحام نساءهم أربعين عاماً فانقطع نسلهم فغرقوا ولا طفل فيهم وما كان الله تعالى ليهلك بعذابه من لا ذنب له وأما الباقون من قوم نوح عليه السلام فأغرقوا لتكذيبهم لنبي الله نوح وسائرهم أغرق يرضاهم بتكذيب المكذبين ومن غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهد، وفي تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام مثله.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٣) نور الثقلين ٢: ٣٥٠ في تفسير القمي عن صالح بن ميثم قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما كان =

فلقد كان دعائه عليهم بعد وحي الله وقبل الطوفان، دعاء على ضوء الوحي دونما تخرّص بالغيب، فالأخبار الناطقة بأن في ذلك الدعاء يداً شيطانية هي بنفسها من يد شيطانية! إذ لم يدع نوح إلّا بإذن الله وبعد ما أخبره الله ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ من ثم وليس الله ليجيب نوحاً إلى دعوة فيها يد شيطانية!.

وترى ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾ تحيل إيمانهم في المستقبل؟ فهم غير مكلفين - إذاً - بالإيمان! أم وعليهم أن يؤمنوا أنه لن يؤمنوا لأنه وحي رسالي واجب التصديق؟ فهو جمع بين نقيضي واجب الإيمان والتصديق باستحالته!.

﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾ يواجه نوحاً والذين معه إخباراً عن حال هؤلاء الكفار، وهم مكلفون بتصديق أنهم لن يؤمنوا، مع تكليفهم أن يؤمنوا، حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار.

فعلم الله بأنهم لن يؤمنوا كاشف قاطع أنهم لن يختاروا الإيمان، فليس ذلك العلم سبباً لعدم إيمانهم تسييراً، إنما هو كاشف عنه، ولو أنهم أم واحداً منهم آمن كان يعلم الله من ذي قبل أنه سوف يؤمن.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(١).

وذلك أمر صارح بصناعة الفلك، لا فقط تشريعيا، بل و﴿بِأَعْيُنِنَا

= علم نوح حين دعى على قومه أنهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً؟ فقال: أما سمعت قول الله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هُود: ٣٦]. وفي نقل آخر بزيادة: فعند ذلك دعى عليهم بهذا الدعاء.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

﴿وَوَحْيِنَا﴾ فالمهندس في صناعة هذا الفلك هو الله، والعامل هو رسول الله، فما ظنك إذا بالزمن الذي يشغله، والهيكل القويم الذي يحمله؟ إنه فلك رباني ما أحكمه بنية وما أقصره زمناً، وما أيسره صنعاً!.

فـ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بجمعية الصفات - تعني أعين العلم والقدرة والرحمة، ثم ﴿وَوَحْيِنَا﴾ في مواده وحجمه وشكله وقوامه وكل كيانه، وصنع الفلك بأعين الله ووحيه لخضمّ الطوفان العام، نجاة لنوح والمؤمنين معه، إنه دون ريب صنع منقطع النظير، فلا غرق أو انكسار لذلك الفلك حتى قضاء أمر الله.

أجل ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ ونحن نرعاك ونحفظك، إذ ليست له سبحانه عين تلحظ أو لسان يلفظ، وكما يقال: أنا بعين الله، سر وعين الله ترعاك، ومن كلامهم للظاعن المشيّع والحميم المودّع، صحبتك عين الله، أي: رعاية الله وحفظه.

وكيف هنا في صنع الفلك ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ وفي موسى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[1]؟ قد يعني إفراد «عيني» في موسى عين الرحمة التربوية الرسالية، وهنا في «أعيننا» عيون الرحمات التي تصنع فلك النجاة من كافة الجهات هندسة ومادة وحجماً وثقلاً ومقاومة للأمواج.

أجل ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا...﴾ وكما ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[2].

وقد يقال في زمن صنعه أنه خمسمائة عام، ولكن كيف والله يقول «ووحينا»[3] وأعين الله ووحيه ليسا ليبطئا هكذا، لا سيما حسب وحيه ﴿أَنَّهُۥ

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٢) سورة القمر، الآية: ١٤.
(٣) نور الثقلين ٢: ٣٥٣ في روضة الكافي عن المفضل بن عمر قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته حتى فرغ منها؟ قال: في دورين، قلت: وكم الدوران؟ قال: ثمانين سنة، قلت: إن العامة يقولون: عملها في خمسمائة عام، فقال: كلا كيف =

لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلماذا - إذاً - ذلك التأجيل الأجيل، رغم أن قضية ﴿لَن﴾ و﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[١] هي التعجيل.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ . . . وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ حيث كفروا وكذبوا، فقد تقرر مسيرهم ومصيرهم وانتهى أمرنا فيهم كما دعوت وأجبناك، فخطابي فيهم أياً كان محظور، سواء أكان دعاء الهداية أو المغفرة أو النجاة من الغرق.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

نوح عليه السلام أخذ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فور أمر الله، ولكن أين؟ هل هو على شاطئ البحر؟ ولم يكن يسكن على شاطئ! ولا أنه يصنع ذلك الفلك لبحر! بل هو للطوفان الذي يجعل الكرة الأرضية بحراً، فلذلك، وأن صناعة الفلك - وإن كانت على شاطئ البحر - ليست لها صلة بالعذاب الموعود فـ ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾: «ويقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري»[٢].

= كان؟ والله يقول: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أقول: أصل الاستناد في ذلك الاستغراب بـ «وحينا» صحيح ولكن الدورين وهما (٨٠) عاماً حكمه حكم الخمسمائة في الإبطاء، فقد يقال: صحيح أن ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: ٣٧] دليل السرعة في هندسة الفلك ولكن «اصنع» بالنسبة لنوح عليه السلام يبطئه، والأصح هنا السكوت عما سكت الله عنه إلا ما يلمحه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ﴾ [هُود: ٣٦] و﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ . . .﴾ [نُوح: ٢٧] حيث يقربان زمن صنعه لأقرب زمن بالإمكان صناعة ذلك الفلك العظيم بزيادة أنها ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هُود: ٣٧] وقد يكون أربعين عاماً التي أعقم الله أصلاب رجالهم وأرحام نساءهم كما في خبر العياشي السالف عن الإمام الرضا عليه السلام تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام.

وفي البحار ١١: ٣٢٤ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: صنعها في ثلاثين سنة ثم أمر أن يحمل فيها من كلّ زوجين. . .

(١) سورة نوح، الآية: ٢٧.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٢٧ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كان نوح عليه السلام مكث في قومه =